المجتمع الراشد ..

المهندس خليل حلاوجي

✍ هل البيضة من الدجاجة، أ م الدجاجة من البيضة؟ هو سؤال يشبه إلى حدّ كبير: هل الدولة من المجتمع، أم المجتمع من الدولة؟ وهل نسعى لتأسيس المجتمع الراشد، فنبحث لنا عن حكومة رادعة، أم عن مجتمع يفطن أهميّة الوعي والرشاد؟

في الفصل التاسع من كتابه (ما وراء الخير والشر)، ص ٢٤٣، وهو بعنوان: ما النبيل؟ يقول فيلسوف إرادة القوّة (نيتشه): "ليس النّاس سواسية، فللمجتمع سلّم طويل من الفوارق القيمية بين إنسان وإنسان"، مجتمع به حاجة للعبودية - بمعنى من المعاني - حين يرضى بها، ويبرّر فعل الطغاة. مضيفاً: "إن الحقيقة قاسية، وعلينا أن نقول لأنفسنا - من دون تورية - كيف بدأت كل حضارة على الأرض، حتى الآن". لقد قضت جماعة البرابرة على أعراق الضعفاء والمسالمين، ممّن اعتاشوا على التجارة، وتربية الماشية.. أو على حضارات متصدّعة كانت على وشك أن تلفظ أنفاسها.. (انتهى كلامه).

هنا نقف مع القاعدة التي يقرّرها الواقع التاريخي، حيث الأقوياء يستهلكون الضعفاء، يغتالونهم، يستعمرونهم، يسرقون غدهم، ويبيعون أحلامهم للأوهام!

(نيتشه) يمجّدهم، ويتّهم الضعفاء، ويقول: التنازل عن الامتيازات علامة على الانحطاط. ويضرب (نيتشه) لذلك مثالاً "حين تـتخلّى الارسـتقراطية الفرنسـية عـن امتيازاتهـا، وتقـدّم ذاتها قرباناً على مذبح شعورها الخلقي الجامح، فإنّ ذلك فسادٌ دام قروناً". (انتهـى كلامـه بتصرّف)

تاريخنا يؤكّد تلك اللحظة التي ذاق فيها سيدنا بلال بن رباح طعم التخلّص من عبوديـة سيّده، بعد أن سمح لنفسه، ولسنين طوال، أن يرضى بالذلّ على يديه، فلم يستطع التفكـير في الفكاك من أسر تلك العبودية المبرّرة مجتمعياً لو لم يقـدّم لـه الإسـلام البـديل العقـلاني، ويعيده إلى فهم ذاته من جديد، كونه مخلوقاً لله تعـالى واهـب الحريـة للجميـع.. وبـذلك تحصلّت عند بلال قوّة كامنة، لأنّه اكتشف وعيه وقيمته عند الله، فلم يشعر بثقل الصخرة التي وضعوها على صدره الشريف، لأنه منشغل بما هـو أكـثر أهميّـة.. انشـغل بحريّـة الله تعالى له، وطعم التخلّص من أسر الذلّ، وطعم الاستخفاف بوجوده بين البشر، الذين كلّهـم سواسية عند الله؛ الفارق الوحيد بينهم هو في بذل المنافع للناس، وتقوى الله تعالى..

إنّها مفارقة المجتمع الذي يرضى بالعبودية، والمجتمـع الـذي يرفضـها، ويفضـح الملأ مـن قريش من كبراء الطغاة.. بلال فهم جوهر الشـريعة التي جـاءت لتحـرّر الإنسـان، وتعينـه على استبدال آليّة (التسلّط) بآليّة (الإقناع)، فلا يمكن لأحـد أن يفـرض شروطـه عـلى غـيره قسراً وتجبّراً. وتتّضح هذه الطريقة الجديدة في التفكـير مـع مشـهد مأسـاوي حيـث مقتـل الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ، وهو الخليفة الشـرعي للمجتمع الذي يستفتح معالم (الرشـاد)، حيـث حصـل الاعـتراض المـذموم، وتعرّضـت قيمـة الرشـاد المجتمعـي إلى امتحان عسير.. ودمه المسفوك أنتج الدولة الأمويّة فيما بعد، والتي بدورها أنتجـت الدولـة بصيغتها العباسية. وبالتالي، ظهور الدولة الفاطمية، والأندلسيّة، بصـور شـتّى، حتّـى كانـت الدولة العثمانية في نهاية المطاف.

كلّ تلك التحوّلات في بنية الدولة القائمة عـلى (الشـوكة) والمنعـة والعصـبة، بتعبـير ابـن خلدون، وهي غير دولة الرسول - صلى الله عليه وسـلم -، والقائمـة عـلى (الإقنـاع)، كبـديل للتسلّط المقيت؛ هي دولة يكون المواطن فيها هو (الخليفة)، وفق اسـتدلال الآيـة الكريمـة في قول الله تعالى لنا: {إني جاعل في الأرض خليفة}، المواطن الذي له القدرة عـلى محاكمـة الحاكم عن طريق الحوار والنقاش والتمحيص، حيث الحـاكم هـو الراعـي لمصـالح العبـاد، وحماية حقّهم في الحريـة، فـلا إكـراه في الـدين، ولا إكـراه في الشـأن السـياسي، ومـن حـق الطـرف الأضـعف - وهـو المـواطن - أن يقـف بكـل شـفافية، وفي قلـب المسـجد، ليحـاكم الخليفة، ويعترض على أخذه قطعة قماش إضافية، كما حدث مع سيّدنا عمر بـن الخطـاب

- رضي الله عنه -. وكما حصلت الكثير من المدافعات والمناقشات مع سيدنا أبي بكر من قبله.. على الرغم من أن هذا الحوار تُشوِّهه لحظة مقتل الخليفة الثالث..

إلا أن ذلك يمنحنا صورة شديدة الوضوح لما كانت عليه رؤية النبي - عليه الصلاة والسلام - مع ولادة دولة الرشد، حيث المجتمع مؤهّل لمراقبة حكامه ومحاسبتهم، فالحاكم يكون مسؤولاً عن مراقبة العدالة الاجتماعية بين شرائح المجتمع؛ بين الزوج والزوجة؛ والبائع والشاري؛ الأحرار والعبيد؛ الأغنياء والفقراء؛ المستضعفين والمستكبرين، فلا تقبل هذه الدولة بالطغيان، بجميع صوره وأشكاله، لأن الشريعة ذاتها لا تقبل بذلك، بل هي تحمي الضعفاء، وترد إليهم حقوقهم، وتردع الأقوياء وتنذرهم بالعقاب إن تجاوزوا حدودهم.

وهنا يتّضح أن (الحكمة)، وليست (القوة)، مَنْ رسمت كلّ تفاصيل المشهد للحياة اليومية، وذاق الجميع طعم التوافق المجتمعي، الذي تحكم حدوده العدالة، إلى حدّ لحظة اغتيال الخليفة بأيدي صحابته أنفسهم، فبرزت القوّة من جديد لتتصدّر المشهد، وإلى يومنا هذا، حيث الاغتيالات هي إحدى طرق تداول السلطة!

فعاد سؤال (نيتشه) من جديد.. ما النبيل؟ وبمعنى أدقّ ما الحاكم النبيل؟ وما المحكوم غير الذليل؟ إنها حلقة مفرغة لا نزال نخفق من الفكاك منها.. اللهم إلا إذا أردنا أن نصل إلى المجتمع الراشد، فعلينا أن نشيع بين فئات المجتمع الكفّ عن التظالم واغتيال الحقوق فيما بينهم؛ حيث النظرية القرآنية في الأمن المجتمعي، قول الله تعالى لنا: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون}، فهذه الآية تخاطب المحكوم وتقول له وبلغة واضحة: يا أخي لا تقبل بالظلم، وكن كبلال بن رباح الذي ذاق طعم التحرر. هذه الآية تخاطب الوعي المجتمعي بأن عليه رفض كل صور القبول بالذل.. عندها سنكون قد أكملنا الاستعداد للعيش في رحاب عدالة الله جلّ وعلا❐

الكاتب في سطور:

- خليل إبراهيم شكر حلاوجي. من مواليد الموصل ١٩٦٧م.
- خريج: جامعة بغداد - كلية الهندسة ١٩٨٩م، وجامعة الموصل – كلية التربية/ قسم علوم القرآن ٢٠١١م.
- عمل مدرِّساً للغة العربية، ثم مديراً لثانوية الأوائل الأهلية.
- معد ومقدِّم برنامج (البوصلة)، وبرنامج (ليس صحيحاً) من على شاشة الفضائية الموصلية.